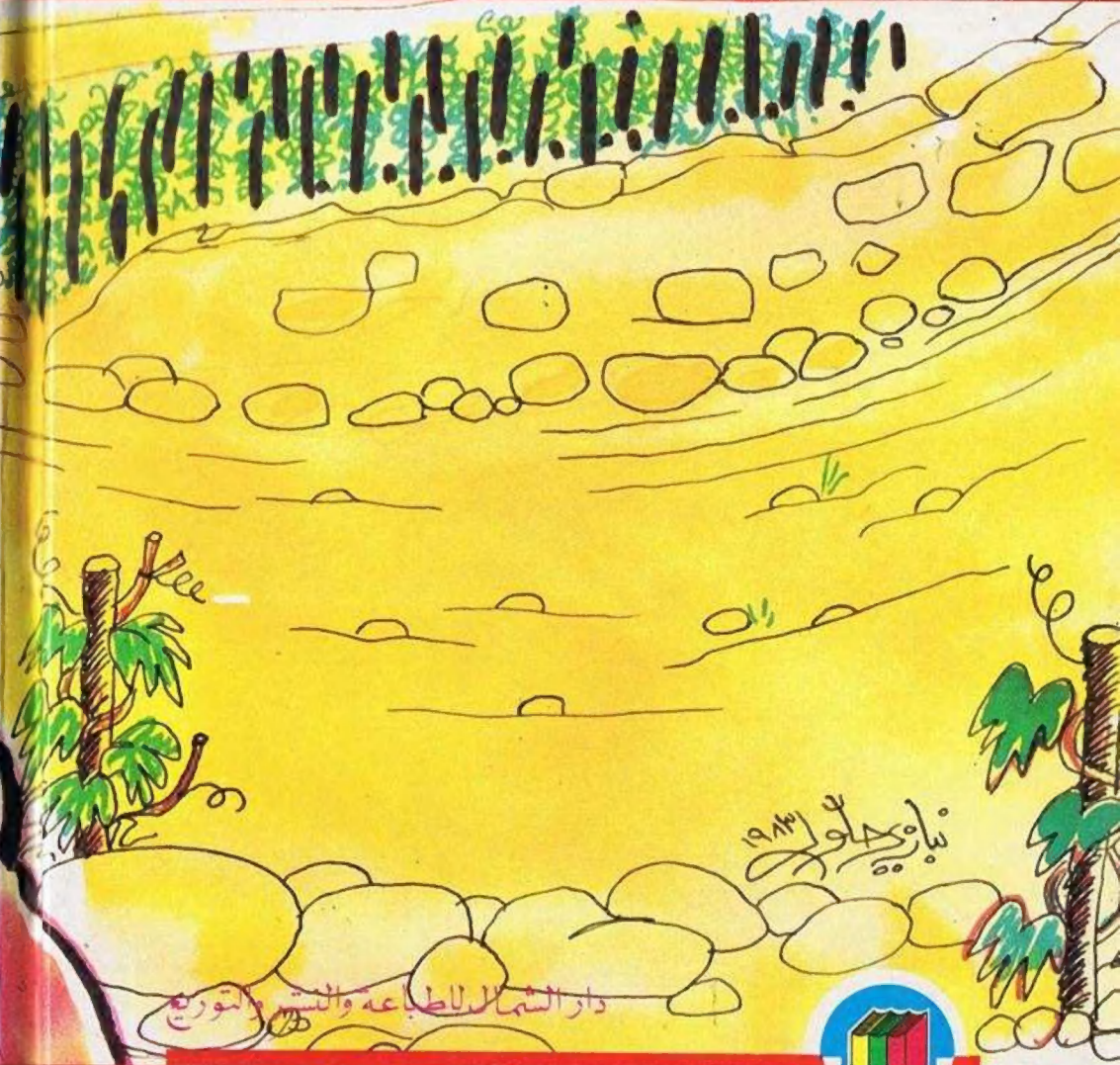
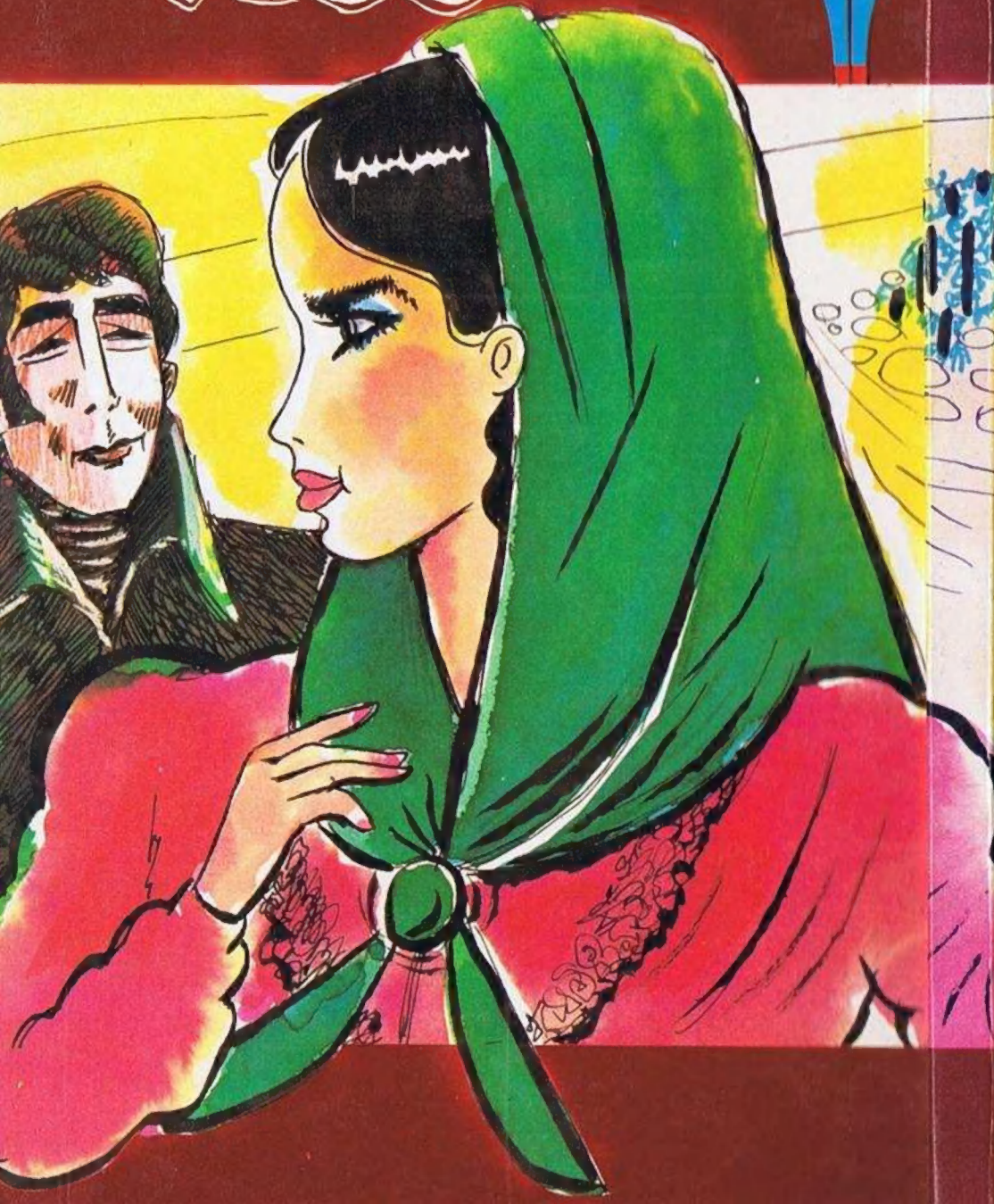


كولومبا

قصص
عالمية

الاحمر والاسود فونتين
الاب البخيل جاشروش
كولومبا ميشال سترغوف
غرازييلا كوزيت



نابيجو ١٩٨٣

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعة الاولى: ١٩٨٣
الطبعة الثانية: ١٩٧٧

كولومبا

تأليف الكاتب الفرنسي الكبير
بروسبر ميريميه

أشرف على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة

سيف الدين الخطيب

كولومبا

في شهر تشرين الأول من عام ١٨١٩، كان السير توماس نيفيل، العقيد في الجيش الانكليزي وابنته الانسة ليديا، المسافرين بحراً من مرسيليا الى كورسيكا، يعتقدان أنهما وحيدان، لكن شاباً صعد أيضاً في اللحظة الأخيرة الى المركب. إنه أورش أنطون ديلارييا، الملازم السابق في جيش نابوليون والمتحدر من إحدى أعرق الأسر في كورسيكا. وبفضل لطفه ومرجه وثقافته فقد أعجب أورش أنطون العقيد فوراً.

كانت الليلة الأولى جميلة، فالقمر يرسل أشعته على البحر والمركب يسير مدفوعاً بريح خفيفة. أحبت الانسة ليديا شاعرية هذه الليلة فصعدت الى ظهر السفينة مع وصيفتها. لم يكن هناك احد سوى البحار المناوب الذي كان يغني أغنية كورسيكية في مؤخرة المركب. لم تفهم الانسة ليديا كل الكلمات لكنها أدركت أن الأغنية تتحدث عن جريمة قتل :

الطبعة الأولى

حقوق النشر محفوظة

١٩٨٣

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان : تلفون ٢٣١٢٨٢

«تلممني اليد التي قتلت،

— والعين التي صوبت،

— والقلب الذي فكر...

ثم توقف البحار متضيقاً.

سألته الأنسة نيفيل: «لم لا تكمل يا صديقي؟..»

دعا البحار على اورسو الذي صعد هو ايضا الى ظهر

السفينة ليُشاهد ضوء القمر، عندئذ قالت الأنسة ليديا:

«اكمل أغنيتك، إنها تلي لي.»

لم يجب البحار وتقدم أورسو نحوها قائلاً: «أرى أنك

تأملين بحرنا المتوسط بسرور، فالمرء لا يُشاهد هذا القمر في

أمكنة أخرى، أليس كذلك؟

— لم أكن أنظر إليه، فقد كنت مُشغلة بدراسة اللغة

الكورسيكية، وكان هذا البحار يُغني أغنية مُرعبة فيها دم كثير

وتوقف عند أجمل لحظة.

تطلع البحار ليرى ما إذا كان أورسو لا ينظر إليه وشد

معطف الأنسة ليديا.

كان واضحاً أن أغنيته لا يمكن أن تُغني امام الملائم اورسو

الذي قال:

— ما الذي تُغني يا باولو فرانسي؟ إن الأنسة تفهمك وتود

سماع الجزء الأخير.

— لقد نسيته يا أورس انطون.

لم تقل الأنسة ليديا شيئاً وقررت أن تنتظر لمعرفة نهاية

الأغنية، لكن وصيفتها الايطالية التي تفهم اللغة الكورسيكية

كانت تتوق هي أيضاً لمعرفةا فسألت أورسو قبل أن تتمكن

الأنسة ليديا من تحذيرها:

— ما معنى إعطاء الريمباكو يا سيدي؟

— معناه السخرية من رجل لم يثار لنفسه.

— كيف؟ يثار؟

— أجل، إن الرجل لا يثار لنفسه حيناً لا يأخذ حقه بنفسه

ويقتل عدوه وهو أمرٌ مخيفٌ بالنسبة للكورسيكي، فمن الذي

حدثك عن هذا الريمباكو؟

بادرت الأنسة ليديا للإجابة: لقد استعمل صاحب

المركب هذه العبارة البارحة في مرسيليا.

— وعمن كان يتحدث؟

— كان يسرد علينا قصة قديمة.. أجل، اعتقد.. .. إنني

نسيته. ليلة سعيدة يا سيدي.

نزلت الأنسة ليديا الى غرفتها فذهب أورسو من جهته.

وبعد انصرافه حضرت الوصيفة مجدداً الى ظهر السفينة وسألت البحار: «لِمَ قطعت أغنيتك؟»

— لأن أورشو قد وصل، فهذه الأغنية ألّفت عند وفاة أبيه العقيد ديلا ريبيا الذي قُتل منذ سنتين. وأنا واثق من أن أورشو عائد إلى كورسيكا ليشارك لنفسه. وعماً قريب سيُرى «لحم طازج» في قرية بياتر. أترأه يعتقد أورشو أن شخصين أو ثلاثة قد قتلوا والده وسيقتلهم بدوره.

رددت الوصيفة كل ما سمعته للآنسة ليديا فزاد اهتمامها بأورشو. وفي اليوم التالي طرحت عليه اسئلة طويلة عن بلاده فأجاد الحديث عنها. وعندئذ فقط لاحظنا عيني الملازم الشاب الكبيرتين وأسنانه البيضاء وجسمه النحيف وتربيته الحسنة. قال:

«لقد غادرت كورسيكا وأنا صغير، فظلت تعيش في فكري وخيالي. إنني أحب جبالها وغاباتها وعادات سكانها. غالباً ما أسمع كلمة الثأر من فم الكورسيكي، لكنني لا أحب من يثأرون. وهنا ينبغي أن أقول لك أن جزيرتنا كانت دائماً في حرب مع الجنوبيين وأنا كنا دوماً مُفتقرين إلى العدالة. وهكذا تعود الكورسيكيون الذين يعيشون وسلاحهم في أيديهم على أن يأخذوا حقهم بأنفسهم.

لكننا الآن نعيش أخيراً بسلام بعد أن أصبحنا فرنسيين وأصبح لنا قضاة. ربما كان من الممكن غفران أفكار الثأر عند الفلاحين الذين لم يفهموا بعد الأفكار الجديدة جداً عليهم. إن «الفانديتا» ومعناها الثأر هي حقاً قتال الفقراء. وقبل أن يدخل المرء حرباً مع عدو يُحذره: «إحترس فأنا مُحترس». صحيح أن القتل عندنا يفوق القتل في كل مكان في العالم، لكن لا أحد يقتل بهدف السرقة. لدينا قتلة كثيرون، دون أن يكون عندنا سارق واحد».

ها هي السفينة الآن على مرمى النظر من كورسيكا، وقد انبرى أحد البحارة لتسمية نقاط الساحل الهامة. وأحياناً كان يُشاهد رجل يلبس جوخاً أسمر، وقد تدلت بندقيته طويلة من كتفه وامتطى جواداً صغيراً سريع العدو في دروب الجبل الضيقة.

قالت الآنسة ليديا: «ربما كان هذا هارباً من وجه العدالة».

أجاب أورشو: «إنه بدون شك فلاح مُسلم يقطن القرية المجاورة ويسافر لأعماله. وإذا كان يحمل بندقيته، فلأن تلك عادة في كورسيكا».

بعد ثلاثة أيام، وجدوا أنفسهم أمام الجزر الدموية ومدينة

اجاكسيو الجميلة الواقعة على شاطئ البحر والمحاطة بجبال عالية.

عندما دخلت السفينة المرفأ، كانت غابة ملتهبة تغطي «بوشادي جيراتو». لكن كل شيء كان حزيناً حول اجاكسيو والحركة معدومة في الشوارع اذ لم يكن المرء يصادف سوى عدد صغير من الرجال دون عمل لا يتبدلون، والقليل من النساء، وهن فلاحات يأتين لبيع الخضار والفواكه وكل ما تنتجه البلد. لم يكن يُسمع كلام بصوت مرتفع أو ضحك أو غناء كما هي الحال في مدن ايطاليا. وفي بعض الأحيان كان اثنا عشر فلاحاً مسلحين يلعبون الورق او يتفرجون على اللعب في ظل إحدى شجرات الشارع، دون أن يصرخوا أو يتناقشوا.

بعد وصولها إلى اجاكسيو ذهبت الأنسة نيفيل لرؤية نابليون، لكنها سرعان ما تعبت من هذه المدينة الحزينة وبدأت تعتقد أنها قد أخطأت بالمجيء، عندئذ أخذت أقلامها وألوانها وشرعت ترسم. في هذه الأثناء ذهب العقيد وأورسو إلى الصيد وعادا حوالي الساعة السادسة مثقلين بالطرائد. حينئذ تناول الجميع العشاء فغنت الأنسة ليديا ونام العقيد وبقي الشاب والصبي يتناقشان حتى ساعة متأخرة.

لم يكن اورسو مستعجلاً لرؤية قريته من جديد، وبدا

عليه أنه مسرور جداً في اجاكسيو. كانت الصبيّة تريد أن تشفيه من رغبة الثأر التي تعتقد أنها قد استقرت في قلبه وتُسييه الأفكار السوداء التي تعتقد أنها أعادته الى جزيرته.

اضطرّ العقيد نيفيل لمقابلة المحافظ بسبب جواز سفر، فزاره هذا الأخير بدوره للتعرف على ابنته وكان أورسو موجوداً هو ايضاً. قال العقيد: «إني لا أقدم لك السيد ديلاريبيا لأنك تعرفه بدون شك»

سأل المحافظ وقد بدا عليه بعض الضيق:

— هل السيد هو ابن العقيد ديلاريبيا؟

اجاب أورسو: أجل، يا سيدي!

— لقد عرفت السيد والدك.

ثم بدأ يتحدث عن باريس ودفعه فضوله لسؤال الأنسة نيفيل:

— هل تعرفت على السيد ديلاريبيا على البر؟

— لا، فقد عرفته على المركب الذي احضرنا الى كورسيكا.

قال بصوت منخفض:

— إنه شابٌ كما ينبغي. هل قال لك لم يعود إلى كورسيكا؟

— لا، فقد عرفته على المركب الذي احضرنا الى كورسيكا.

قال بصوت مُنخفض:

— لم اسأله عن ذلك، فباستطاعتك أن تطرح عليه
اسئلة.

صمت المحافظ لكنه بعد لحظة سمع اورسو يتحدث الى
العقيد بالانكليزية فقال له:

— يبدو لي يا سيدي أنك قد سافرت كثيراً، فلا ريب أنك
قد نسيت كورسيكا وعاداتها.

— هذا صحيح، فلقد كنت صغيراً جداً عندما غادرته.
ذات مساء تجرات الأنسة ليديا فقالت لأورسو: «حسناً يا
سيدي، يجب أن أقول لك إنني قد عرفت جزءاً من قضايك
دون أن أحاول ذلك، ومنها ما ينقبض له قلبي. إنني اعرف
المصائب التي حلت بأسرتك، وقد حدثني الناس كثيراً عن
انتقامات مواطنيك فخفت.»

— كيف تستطيعين التفكير...
قالها أورسو وشحب لونه فبدا كالميت.

اجابت وهي تقاطعه:

— كلا يا سيد ديلاريبيا، إنني اعرف أنك «جنتلمان».

— هل تعتقدين أنه يمكن أن أصبح قاتلاً في يوم ما؟

— كلا، لكنني تحدثت اليك لأنني فهمت أن علي أن أساعدك
لحظة عودتك الى بلادك. أعلم أنه ستكون لديك الشجاعة

لعدم اتباع هذه العادات القديمة فلنكف عن الكلام عن هذه
الأشياء البشعة التي تسبب لي الصداخ ثم إن الوقت قد
تأخر... فهل تغفر لي؟... مساء سعيداً.

— هناك لحظات يا أنستي تستيقظ فيها عادات البلاد القديمة
في نفسي. أحياناً، عندما أفكر بوالدي المسكين... تستقر في
داخلي أفكاراً مرعبة... لقد طردتها... فشكراً...
شكراً..

في اليوم التالي كانت الأنسة نيفيل أمام شباك غرفتها
فلاحظت صبية ترتدي ملابس سوداء تدخل المدينة على صهوة
جواد صغير لكنه قوي، يتبعها فلاح يبدو بسلاحه كهارب من
وجه العدالة... او كمسافر كورسيكي وديع. إنها رائعة
الجمال وتظهر في العشرين من عمرها، حزينه النظرات، واثقة
المظهر. شعرها الأسود مشدود الى الخلف ورأسها مغطى
بمنديل أسود كبير. اما ثوبها ففي غاية البساطة.

توقفت لتطرح اسئلة على بعضهم، ثم جرت جوادها
بسرعة وجلست على مقعد حجري بجانب الباب بينما اقتاد
تابعها حصانها.

بعد قليل ظهر العقيد وأورسو العائدان من الصيد.
عندئذ قال صاحب النزل بضع كلمات للصبية المرتدية ثياب

الحداد ودلها بإصبعه على الشاب ديللاريبيا، احمر وجهها ونهضت فتقدمت بضع خطوات ثم توقفت. كان أورسو قريباً منها يتطلع إليها بانتباه. قالت: أأنت أورسو أنطونيو ديللاريبيا؟ أنا كولومبا.

— كولومبا!

أخذها بين ذراعيه وقبلها طويلاً ممّا ادهش العقيد وابنته، ففي إنكلترا لا يتعانق الناس في الشارع.

قالت كولومبا: «اغفر لي يا أخي إذا كنت قد أتيت دون امرئ لكنني علمتُ بقدمك من اصدقائنا وكنت في غاية السعادة لرؤيتك!...»

قبلها أورسو أيضاً ثم التفت نحو العقيد قائلاً: هذه أختي، ولم اكن لأتعرّف عليها لو لم تُسمّ نفسها. يا كولومبا، إنني أقدم اليك العقيد سيرتوماس نيفيل. اعذري أيها العقيد لكنني لن أستطيع أن أتعشى معكم اليوم... إن أختي.....

— لا يا صديقي العزيز، فسيكون من دواعي سرور ابنتي أن تتعشى الانسة معنا.

قدّمت الانسة ديللاريبيا للانسة نيفيل التي عرضت عليها أن تأمر بوضع سرير ثانٍ في غرفتها لأن الفندق ممتلئ. شكرتها

كولومبا وتبعته وصيفة الانسة نيفيل كي تغتسل وتصفّف شعرها وتنزع الغبار عن ثيابها.

وعند دخولها توقفت أمام بنادق العقيد التي كان الصيادان قد وضعاهما منذ قليل في إحدى الزوايا، وقالت: يا للأسلحة الجميلة! هل هي لك يا أخي؟ — كلاً، إنها بنادق العقيد.

— بودي لو كانت لك واحدة مثلها.

قال العقيد:

— احدي هذه البنادق الثلاثة هي بالتأكيد لديللاريبيا. إنه يجيّد استعمالها فمقابل أربع عشرة طلقة أطلقها اليوم حصل على أربع عشرة طريدة. اختر يا عزيزي.

اعتذر أورسو عن أخته وأجاب أنه لا يرغب بها.

— حسناً، ستختار الانسة أختك بالنيابة عنك.

لم تدعه كولومبا يكرّر قوله اذ بدت سعيدة كطفل أمام لعبته وهي تتناول اقل البنادق جمالاً، لكنها جيدة ذات عيار كبير. قالت: «هذه البندقية بعيدة المرمى.»

عاد أخوها فحاول الاعتذار منها فلم يعرف كيف يعبر عن شكره. جاء العشاء فبدل الأفكار. كانت عينا كولومبا تلتقي أحياناً بعيني أخيها وكأنهما تحاولان أن تطرحا عليه سؤالاً، لكنه

كَانَ يَتَضَايِقُ فَيَحْوُلُ بَصْرَهُ إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى، كَمَنْ يَتَرَاوَعُ أَمَامَ ذَلِكَ السُّؤَالِ الَّذِي يَدْرِكُهُ جَيْدًا.

بَعْدَ الْعِشَاءِ سَأَلَ الْعَقِيدُ أَوْرَسُو: «هَلْ تَرِيدُ أَنْ نَتْرَكَكَ لَوْحَدِكَ مَعَ الْأَنْسَةِ كُولُومْبَا؟»

— كَلَّا يَا سِيرَتُومَاسَ، فَسَيَكُونُ لَنَا الْوَقْتُ الْكَافِي لِلْحَدِيثِ فِي بِيَاتِرَا نِيرَا، عِنْدَمَا نَسْتَقَرُّ فِيهَا.

حَاولَتِ الْأَنْسَةُ نِيفِيلَ أَنْ تَدْفَعَ كُولُومْبَا الْحَسَنَاءَ إِلَى الْحَدِيثِ لَكِنَّهَا لَمْ تُفْلَحْ فِي ذَلِكَ فَطَلَبَتْ عِنْدئِذٍ مِنْ أَوْرَسُو أَنْ يَقْرَأَ لَهَا نَشِيدًا مِنْ جَحِيمِ دَانْتِي، وَهِيَ شِعْرُهَا الْمَفْضَلُ، وَبَيْنَمَا كَانَ يَقْرَأُ اقْتَرَبَتْ كُولُومْبَا مِنَ الطَّائِلَةِ وَرَفَعَتْ رَأْسَهَا الَّذِي كَانَتْ قَدْ أَخْفَضَتْهُ حَتَّى ذَلِكَ الْحَيْنَ فَاحْمَرَّ وَجْهُهَا ثُمَّ شَحِبَ. وَعِنْدَمَا انْتَهَى مِنَ الْقِرَاءَةِ قَالَتْ: كَمْ هَذَا جَمِيلٌ! مَنْ الَّذِي كَتَبَ ذَلِكَ يَا أَخِي؟

تَعَجَّبَ أَوْرَسُو قَلِيلًا، وَاجَابَتْ الْأَنْسَةُ لِيديَا وَهِيَ تَبْتَسِمُ: إِنَّهُ شَاعِرُ مَاتٍ مِنْذُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ. فَقَالَ أَوْرَسُو: «سَوْفَ أَجْعَلُكَ تَقْرئينَ دَانْتِي عِنْدَمَا نَصِلُ بِيَاتِرَا نِيرَا».

عَادَتْ كُولُومْبَا فَقَالَتْ: «يَا إِلَهِي، كَمْ هَذَا جَمِيلٌ!» ثُمَّ رَدَدَتْ جِزَاءً مِنَ الْقَصِيدَةِ دُونَ أَنْ يَسْمَعَهَا أَحَدٌ فِي الْبَدَايَةِ ثُمَّ

رُنْتُ كُلِّمَاتُهَا وَتَابَعْتُ بِقُوَّةٍ أَشَدَّ، وَبِحَيَاةٍ وَحَرَكَةٍ أَكْثَرَ مِنْ أَخِيهَا.

قَالَتِ الْأَنْسَةُ لِيديَا وَقَدْ أَزْدَادَ عَجْبُهَا: «يَبْدُو أَنَّكَ تُحِبُّنَ الشُّعْرَ كَثِيرًا. كَمْ أَنَا مَسْرُورَةٌ لِعِلْمِي أَنَّكَ سَتُسَرِّينَ بِقِرَاءَةِ دَانْتِي كَكِتَابٍ جَدِيدٍ! قَالَ أَوْرَسُو: «أَنْتِ تَرِينِ يَا أَنْسَةُ نِيفِيلَ تَأْثِيرَ شِعْرِ دَانْتِي عَلَى قَلْبِ فَلَاحَةِ بَسِيطَةٍ. لَكِنِّي مَخْطِئٌ إِذَا أَذْكَرُ أَنَّ كُولُومْبَا تَحْتَرِفُ هَذِهِ الْمِهْنَةَ. إِذَا كَانَتْ أَخْتِي لَا تُحِبُّ الْكَلَامَ فَهِيَ تَحِبُّ الْغَنَاءَ وَعِنْدَمَا كَانَتْ طِفْلَةً، كَانَتْ تَمْضِي وَقْتُهَا بِمَحَاوَلَةِ نَظْمِ الشُّعْرِ، وَكَانَ وَالِدِي يَكْتُبُ إِلَيَّ قَائِلًا: إِنَّهَا أَعْظَمُ مَغْنِيَةٍ فِي بِيَاتِرَا نِيرَا وَالْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ.»

رَمَتْ كُولُومْبَا أَخَاهَا بِنَظَرَةٍ طَوِيلَةٍ تَعْيِسَةٍ، أَمَّا الْأَنْسَةُ نِيفِيلَ الَّتِي كَانَتْ قَدْ سَمِعَتْ الْمَغْنِيَاتِ الْكُورْسِيكِيَّاتِ، فَقَدْ رَغِبَتْ بِسَمَاعِ إِحْدَاهُنَّ وَطَلَبَتْ مِنْ كُولُومْبَا أَنْ تُعْطِيَهَا مِثَالًا عَلَى فَنِّهَا. ابْتَسَمَتْ لَهَا هَذِهِ الْأَخِيرَةُ لِأَنَّهَا سَتَتَكَلَّمُ أَخِيرًا. تَأَمَّلَتْ الطَّائِلَةُ طَوَالَ دَقِيقَةٍ ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى السَّقْفِ. وَعِنْدئِذٍ وَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى عَيْنَيْهَا وَغَنَّتْ مَا يَلِي:

فِي الْوَادِي. بَعِيدًا جَدًّا وَرَاءَ الْجِبَالِ،
تُظَلُّ الشَّمْسُ سَاعَةً فَقَطْ كُلَّ يَوْمٍ.
فِي الْوَادِي بَيْتٌ مُظْلَمٌ

ينبت العشبُ أمامَ بابِهِ .

أبوابُهُ وشبابيكُهُ دوماً مُغلقة .

لا يتصاعدُ أيُّ دخانٍ من سقفه .

لكنْ عندما تأتي الشمسُ ظهراً

عندها تُفتح نافذةُ

وتجلسُ الصبيةُ اليتيمةُ الأبوينِ

إنها تخطُّ وتغني ، وهي تعملُ ،

اغنيةً حزينةً .

لكنْ آيةً اغنيةً أخرى لا تتجاوبُ مع أغنييتها .

وفي يومٍ من أيامِ الربيعِ

حطَّت حمامةٌ على شجرةٍ قريبة

فسمعتُ غناءَ الصبيةِ

وقالتُ : أيتها الصبيةُ إنكِ لا تبكين وحدكِ

فقد انتزعَ مني طائرٌ خفيفٌ صديقتي .

— أيتها الحمامة ، أريني الطائرَ المخيفَ ،

وحتى لو كان بعلو الغيومِ

فسأقتله قريباً .

لكنني وأنا البنتُ المسكينةُ ، مَنْ يُعيدُ لي أخي

أخي البعيدَ الآن في الغربةِ

— أيتها الصبيةُ ، قولي لي أين أخوك

وستحملني جناحي إلى قربه .

قال اورسو مُعانقاً أخته وقد انقبض قلبُهُ : هذه حمامةٌ

مُهذبة . أما العقيدُ الطيبُ فلم يفهمَ كلمةً واحدةً لكنه قال

لكولومبا : « انني جدٌ سعيدٌ يا آنسة لِسَماعي نشيدك . هذه

الحمامةُ هي بالتأكيد ذلك الطائرُ الذي اكلناه اليوم . »

حلت ساعةُ النومِ فذهبتِ الفتاتانِ إلى عُرفتهما . وبينما كانتُ

كولومبا تخلعُ ثيابها لاحظتِ الأنسةُ ليديا أنها تضعُ شيئاً على

الطاولةِ تحتَ ملابسها ، فدفعها فضولها الشديدُ إلى الاقترابِ

منها ورأتُ سكيناً طويلةً ذاتَ قبضةٍ فضيةٍ ، حسنةِ النقشِ ،

تشكّلُ سلاحاً قديماً غالي الثمن . قالتُ باسممة : « هل من عادةٍ

الفتياتِ أن يحملنَ هذا الشيءَ الصغيرَ تحتَ ملابسهن ؟ »

فأجابت كولومبا : « هذا ضروري ، فهناك الكثيرُ من الناسِ

الأشرارِ »

— أليديك الشجاعةُ لتسديدِ ضربةٍ كهذه ؟

رفعتِ الأنسةُ نيفيل ذراعها والسكينُ في يدها ثم خفضتهُ

وهي تضربُ كما في المسرحِ من أعلى إلى أسفل . قالتُ

كولومبا :

– أجل، اذا كان هذا ضرورياً للدفاع عن نفسي او عن

أولادك، اكن لاهماً لا لاهلاً، اكن ذا قلباً قديراً

ديلا ريبيا فتاة من أسرة باريسيني ثم هجرها فقتله قريب لها

مسيحياً، شخصاً واحداً من هؤلاء الذين قصصهم تختلف

— أتذكرين ما كان يقصُّه علينا ذاك اليوم السيد والدُّك عن أولئك الناس الذين يتركون أنفسهم يموتون جوعاً إذا حِيلَ بينهم وبين العدالة؟

— هل تعني أنك قد تترك نفسك تموت جوعاً؟ أنا لا أصدق ذلك. قد تبقى يوماً دون أكلٍ ثم تحملُ لك بعده الأنسة كولومبا جُبناً كورسيكياً تُنسيك لذته ما وعدت به.

— أنتِ تسخرين مِنِّي يا آنسة نيفيل، وأنا وحيدٌ هنا، ليس سواكِ لمنعي من أن أصبح مجنوناً.

— لنكن جديين، فلديكِ شجاعتُكِ كرجلٍ وكضابطٍ لمساعدتك... والصورة التي ستحملها عني.

— آه يا آنسة نيفيل، لو كان في مقدوري أن أظن أنني أثير اهتمامك بعض الشيء!

— اصغِ إلي يا سيد ديللاريبي، هذا الخاتم الذي أحمله في أصبعي؟ إنه قديمٌ جداً... وعندما تساورك فكرة كورسيكية شريرة، أنظر إلى الخاتم إنني سأرى على المرء أن يربح دائماً الشوط ضد نفسه.

— سوف افكرُ بك يا آنسة نيفيل وسأقول لك...

— قلْ لنفسكِ أن لك صديقة سيُحِبُّكِ... بِشْنَقِكِ.

أخذت تضحك وتركت ذراع أورسو ثم ركضت نحو أبيها قائلة:

«أترك هذه الطيور الصغيرة يا أبتاه، وتعال معنا.»

* * *

كان على أورسو أن يرحل مع أخته في الصباح الباكر. وبينما كان يحتسي قهوته مع العقيد، دخلت الأنسة ليديا مع كولومبا. كانت قد نهضت في الخامسة صباحاً، وهذا بالنسبة لها جهدٌ كبير. قال أورسو: «أعتذرُ لابقاظكِ باكراً فلا شك أن أختي قد ايقظتك، وربما كنت غاضبةً علينا وتريدين رؤيتي مشوقاً».

قالت الأنسة ليديا بصوتٍ منخفض: «كلاً، لكنني رايتُكِ حزيناً جداً أثناء العشاء: ربما كان ذلك لأنني سخرتُ منك، لذا لم أشأ أن أترككِ ترحل وأنت تحملُ صورة زائفة عني. كم أنتم مخيفون أيها الكورسيكيون! إلى اللقاء قريباً.» ثم مدتُ له يدها، فنظر إليها أورسو دون أن يجيب. إقتربت منه كولومبا فاقتادته إلى جوار نافذة وأرته شيئاً. قال أورسو للآنسة نيفيل:

«إن أختي تريد أن تعطيك هذا يا آنسة. فنحنُ

الكورسيكيين ليست لدينا أشياء كثيرة نعطيها. . . لقد قالت لي أختي إنك بالأمس قد أطلت النظر الى هذه السكين. وكولومبا تعتقد أنها قديمة ونادرة لدرجة أنها سألتني إذا كانت تستطيع أن تهديها لك. لكنني أخشى أن تسخري مني. — هذه السكين جميلة جداً، لكنها سلاح عائلي فلا

أستطيع انتزاعها منك.

قالت كولومبا بقوة: «هذه ليست سكين والدي. لقد اعطاها لأحد جدود والدتي رئيس كورسيكي كبير، وسأسر إذا أخذتها.»

قالت الأنسة ليديا وقد تضايقت: «لكنني لا أستطيع أن أترككم ترحلون دون سلام فأجابت كولومبا مهدوء: «إن أخي معي ومعنا كذلك البندقية الجيدة التي أعطانا إياها والدك. هل حشوتها يا أورشو؟ عندها قبلت الأنسة نيفيل السكين.

وأخيراً كان عليهما أن يرحلا. صافح أورشو يد الأنسة نيفيل وقبلتها كولومبا. ومن الشباب، رأت الأنسة ليديا الأخ والأخت يتجهان على جواديهما الى الجبل. كانت كولومبا تبدو سعيدة فرفع أورشو رأسه ورأى صديقه. عندئذ أراها الخاتم الذي اعطته إياه ورفعته الى شفثيه فاحمر وجه الأنسة ليديا وتركت التافذة ثم عادت إليها فوراً لترى أصدقاءها.

قالت الأنسة ليديا: «ما الذي اتيتُ افعله في كورسيكا؟ وما الذي يظنه في هذا الشاب؟ أوه! إنني لا أحبه! . . كلا، كلا. . . إنه يحبني وأنا واثقة من ذلك.» ارتمت على سريرها وأرادت أن تنام لكن النوم استحال عليها.

* * *

كان أورشو يسافر الآن على جواده مع اخته وكانا يتناقشان عن الأصدقاء الذين تركاهم. تحدثت كولومبا بكثير من السرور عن الأنسة نيفيل الجميلة، وعن شعرها الأشقر وتصرفاتها اللطيفة. ثم سألت عما إذا كان العقيد ثرياً كما يبدو عليه، وإذا كانت الأنسة ليديا ولده الوحيد. وقالت: «يبدو أن والدها يحبك كثيراً. . .»

لم يرد أورشو فتابعت قولها: «قديماً، كانت أسرنا غنية، ولا تزال عظيمة الأهمية في الجزيرة. لو كنت مكانك يا أورشو لطلبت الأنسة نيفيل من والدها. . (رفع أورشو كتفيه) ولا شريتُ بمالها الغابات والكروم المجاورة لدارنا.

— أنت مجنونة يا كولومبا.

— انت رجل يا أورشو، ولا ريب أنك تعرف أكثر من المرأة ما يجب أن تفعله. .

بعد مسير ست ساعات، وصل المسافرين إلى بوغونيانو حيث توقفوا للعشاء والنوم عند صديق لأسريتهما. وفي اليوم التالي قال لهما صديقهما وهما يستعدان لاستئناف السفر: «أنظرا إلى هذه الغابات حيث يمكن لمن ارتكب خطيئة أن يعيش عشر سنوات دون أن تعثر عليه الشرطة... وعندما يكون للمرء اصدقاء في بوغونيانو، لا ينقصه شيء. لديك بندقية جميلة يا أورسو، وبإمكانك أن تقتل بها ما هو أفضل من الطريدة».

أجاب أورسو بتهذيب إن بندقيته إنكليزية بعيدة المرمى.

تعانق الجميع واستأنف المسافرين رحيلهما. وعند وصولهما إلى قرب بياترانيرا، رأيا من بعيد ثمانية رجال مسلحين بالبنادق فقالت كولومبا بسرور زائد: «إنهم جماعتنا». وتابعت وسط دهشة أورسو:

— الذين يحرسون أراضينا. لقد طلبت منهم أن يأتوا لاقتيادك حتى دارنا، إذ لا يجب أن تدخل بياترانيرا لوحديك، وعليك أن تعرف أن آل باريسيني لن يتراجعوا أمام أي شيء.

— لقد طلبت منك يا كولومبا ألا تحدثيني عن آل باريسيني. إن الناس يسخرون مني عندما يرونني أدخل

بياترانيرا ويتبعني هؤلاء المسلحون. إنني غير مسرور من استدعائك لهم.

— لقد نسيت بلادك يا أخي، فعلي إذن أن أحرسك إذا لم تنتبه للخطر لقد كان علي أن أفعل ما فعلته..

في هذه اللحظة رأت جماعة كولومبا أورسو فامتطت الجياد وابتدت لاستقبالهما، صاح رجل عجوز لكنه قوي وذو لحية بيضاء: عاش أورسو! كم تشبه والدك! ويا لجمال هذه البندقية! سوف يتحدث الناس عن هذه البندقية يا أورسو! وردد آخر: عاش أورسو! لقد كنا نعرف أنه سيعود. أوه يا أورسو. إن والدك كان سيُسّرُ جداً باستقبالك!.. إنه لم يصدقني وهو يعرف الآن أنني كنت على حق!

— عاش أورسو! وأطلقوا اثنتي عشرة طلقة.

بدا على أورسو أنه غير راض فسكت أول الأمر ثم قال: «أنتم في غاية اللطف يا أصدقائي لكنني لا أريد نصيحة واحدة منكم فانا أعرف ما علي أن أفعله..»

— إنه محق! إنه محق! انت تعرف أننا سنساعدك دوما!

— أعرف ذلك لكنني لست بحاجة لأحد. عودوا إلى عزائكم فانا أعرف طريق بياترانيرا.

قال الرجلُ العجوزُ:

— هذا حسنٌ، لكن عندما تنطقُ بندقيتك الضخمة يا أورس أنظون، فإنَّ بندقيتي العجوز كصاحبها لن تسكتُ.
— شكراً يا بولو غريفو، لكن اذهب ودعنا نكملُ طريقنا لوحدنا.

اتجهتِ المجموعةُ الصغيرةُ الى الامام على ظهورِ الجيادِ نحو القرية. قال بولو غريفو العجوز لأصدقائه: «إنني افهمهُ! إنني افهمهُ! إنَّه لا يقول ما يريدُ فعله بل يفعله، فهو شديدُ الشبهِ بأبيه! إنَّ حياةَ العمدةِ في خطرٍ.»

وهكذا دخل رئيسُ أسرةِ ديللاريبيا قريته وعاد الى دارِ أهله الكبيرة فخرج كلُّ أصدقاءِ عائلته لملاقاته مجتمعين. في هذه الأثناء كان العمدة وأصدقاؤه يتطلعون من وراءِ نوافذِهِم المغلقة.

هناك ساحةٌ تتوسطُ تقريباً قريةَ بياترانيرا، وفي طرفها الشمالي يرى المرءُ دارَ آل ديللاريبيا، بينما تقعُ دارُ آل باريسيني في الطرفِ الآخرِ الجنوبي، وكلا البيتين المتقابلين كبيرٌ ومريح. كان على اورسو أن يمرَّ امام دارِ العمدة كي يعودَ الى داره، لكن كولومبا كانت تفضلُ سلوكَ طريقِ أطول فقال اورسو:

«لِمَ تُزعجُ أنفسنا؟ إنَّ السَّاحةَ للجميع.» ثم دفعَ جواده إلى الامام.

قالت كولومبا بصوتٍ مُنخفض: «يا للشجاعة!... سيُثارُ لك يا والدي» ثم وقفت بين دارِ آل باريسيني وأخيها ولم تُحولِ نظريها عن نوافذِ أعدائها المغلقة.

قالت: «إنَّهم خائفون أنظروا إليهم فقد شرعوا يحترسون! لكنهم سيضطرون للخروج يوماً!...»

وعندما رأى سكانُ بياترانيرا أورسو في الجهة الجنوبية من السَّاحة حيث لم يمرَّ أيُّ فردٍ من آل ديللاريبيا منذُ زمنٍ طويل، تعجبوا حقاً وصمتوا لكنهم عند حلولِ المساء سيتحدثون عن ذلك الى ما لا نهاية.

«الحسن الحظُّ لم يعد بعد أبناء آل باريسيني وإلا لم يتركوا عدوهم يمرُّ هكذا على أرضِهِم ولجعلوه يدفعُ الثمنَ غالياً.»

أضاف رجلٌ عجوز: «أذكروا ما سأقولهُ لكم. لقد أمعنتُ اليوم النَظَرَ في وجهِ كولومبا: إنَّ امرأً ما يدورُ في رأسِها، وعمّا قريب سيكونُ هناك «لحمٌ مجزرة» في بياترانيرا.

استقرَّ اورسو في داره، فذكرتهُ رؤيةُ أُنثىِ أهله الذي احبه كثيراً بلحظاتٍ حلوةٍ وحزينة، وبدا له بيتُهُ فجأةً صغيراً،

فقيراً، وغير مريح بالقدر الذي يسمحُ باستقبالِ الأنسة نيفيل.

جلس الى المائدة لتناولِ العشاء، وعندما رآته كولومبا حزيناً قللت من كلامها. وحين انتهى من الاكل تركته وحيداً ففكر: «إن القرية بأسرها تنتظر أن أثار لوالدي. لكن ممن سأتأثر؟» نظر الى الخاتم الذي قدمته له الأنسة ليديا: «الحياة تتطلب شيئاً من الشجاعة...» فقال: سوف يكون لدي الشجاعة.

قرع الباب وكان الليل قد هبط فمن يمكن أن يأتي في هذه الساعة؟ قالت كولومبا وهي تعدو الى الباب وتفتحه: «ليس هذا بالشيء الهام». دخلت بنت صغيرة نحيلة في العاشرة من عمرها، قد لوحت بشرتها الشمس، وعندما رأت أورسو توقفت متضايقة فحيته ثم تحدثت الى كولومبا وأعطتها طرائد اصطادها عمها. قالت لها كولومبا:

— شكراً، هل عمك بصحة جيدة؟

— إنه بصحة جيدة جداً يا آنسة. لم استطع المجيء قبل الان لأنني بقيت ثلاث ساعات انتظره في الغابة.

— ولم تأكلي؟

— كلا يا آنسة فلم يتسع وقتي لذلك.

— سوف نعطيك بعض الحساء، فهل لا يزال لدى عمك خبز؟

— مقدار قليل يا آنسة، لكن يلزمه على الأخص رصاص لبندقية.

— سوف أعطيك كل ذلك.

سأل أورسو: «من هو ذاك الرجل؟» فقالت كولومبا: إنه فار مسكين يعيش في الغابة وتُعنى به ابنة اخيه هذه.

— وما الذي فعله كي يعيش هكذا في الغابات؟

— لقد قتل الرجل الذي قتل أباه.

خفض أورسو رأسه وتناول المصباح فصعد الى غرفته دون أن يجيب. أعطت كولومبا رزمة ضخمة للطفلة وقالت لها: «ينبغي أن ينتبه عمك جيداً إلى أورسو وأن يدافع عنه.»

* * *

امضى أورسو وقتاً طويلاً قبل أن ينام، وفي اليوم التالي استيقظ في ساعة متأخرة، فكانت أولى نظراته لدار اعدائه، فنزل وبحث عن أخته فوجدها في المطبخ. سألها: «ماذا تفعلين هناك؟»

— ليس لديك رصاصٌ لبندقية العقيد، فأنا أَعِدُّه لك. ها هو.

— إنني لله الحمدُ لا أحتاجُه.

— لقد نسيتَ يا أخي بلدَكَ والنَّاسَ المحيطين بك.

— إذا كنتُ قد نسيتَهُمْ فأنتِ هنا لِتُذكِرني بهم... قولي لي أَلَمْ تصلِ حَقِيقَةً كَبِيرَةً منذُ بضعةِ أيام؟

— نعم يا أخي، هل تريدُ أنْ أحملَها لك؟

— أنتِ تحملينها! لن تكونَ لديكِ القوَّةُ على ذلك.

— إنني لستُ ضعيفةً بالقدرِ الذي تَظُنُّه!

قالتُ ذلك ورفعتِ الحَقِيقَةَ الضَّخْمَةَ لوحِدها فخَفَّ أورسو لمساعدتها قائلاً: «إنَّ فيها ملابسَ لك. أنظري!..»

قالت كولومبا:

— كم هي جميلة! سأضعها في الخزانة لأنني الآن في جِداد.

— لا يجب أنْ تبقى في الجِدادِ وقتاً طويلاً.

— إن الرَّجُلَ الذي سيَجعلُني أخلعُ ثيابَ الجِدادِ، سوف يلبسُها للنِّساءِ هناك. وأشارت إلى دارِ آل باريسيني فلم يُجبْ أورسو. أضافت كولومبا بلطف: «سوف أقدمُ شيئاً انا أيضاً.

إنَّ ملابسَكَ أجملُ ممَّا ينبغي بالنسبةِ لنا، ويجبُ أنْ تحتفظَ بها لِلآنسةِ نيفيل..»

ثم أحضرتُ له سُترةَ صيَّادٍ وسلاحَ أبيه. نظر أورسو إلى نفسه في المرآة وقال: «إنني ابدو بهذه الملابسِ كخارجٍ على القانون في المسرح.»

مرَّت بضعةُ أيام لم تتحدَّثْ فيها كولومبا عن آل باريسيني بل أكثرَ من الاعتناءِ بأخيها الذي اهتمَّ بها بدورِهِ، فجعلها تقرأُ كُتُباً فرنسيَّةً وإيطاليةً.

ذاتَ صباح، خرجت كولومبا لحظةً بعد الغداء ثم عادتُ وعلى رأسِها منديلُها الأسود فقالت: «هل تريدُ الخروجَ معي يا أخي؟» ردَّ أورسو وهو يقدِّمُ لها ذراعَهُ: «إلى أين تُريدُينَ الذَّهاب؟»

— لستُ بحاجةً لذراعِكَ، لكنْ خُذْ بندقيتك إذ لا ينبغي للرجل أنْ يخرجَ دون سلاح.

نادت كولومبا كلبَها ميسشاتي وخرجت مع أخيها فاجتازا الكروم. قالت كولومبا: «إذا سمعتَ نُباحَ الكلبِ يا أخي، فهَيِّئْ بندقيتك وتوقَّفْ عن التقدُّم.»

سارا عشر دقائق توقفتُ بعدها كولومبا في طريقِ أجوف

امام كومة من الأغصان قائلة: «هنا مات والدنا يا اورسو.» ثم ركعت فاقترب اورسو منها وأخذ يبكي. بعد بضعة دقائق نهضت كولومبا وقد جفت عينها فسلكا بصمت طريق القرية وعادا الى دارهما حيث صعد اورسو الى غرفته فأحضرت له كولومبا علبة فتحتها وقالت: «اليك قميص والدنا الملطخ بالدم يا اورسو.» ثم رمت به على ركبتيه مضيئة: اليك الرصاصتين اللتين قتلناه.» ثم وضعتهما فوق القميص وصاحت وهي ترمي بين ذراعي أخيها: «اورسو، يا أخي، سوف تشار له.» قبلته بكل قواها وقبلت ايضا القميص والرصاصتين وغادرت الغرفة.

تأمل اورسو طويلاً القميص المغطى بالدم وأخيراً وبعد جهد، أعاده الى العلبة وركض الى الطرف الآخر من الغرفة فارتمى على سريره وكلمات أخيه الأخيرة تدوي في أذنيه. شعر بحاجة للسير في الريف ولتنشق الهواء البارد، فخرج دون أن يعرف له هدفاً.

أنعشه الهواء فحاول أن يرى بوضوح ما يعتمل في قرارة نفسه لكن الأمر استعصى عليه. ما الذي يجب أن يفعله؟.. لقد وجدته أخيراً: سوف يهزأ من احد اولاد العمدة وهكذا يستطيع أن يبارزه.

عاد الى القرية فسمع غناء بنت صغيرة هي شيلينا التي رآها عند أخته. توقف وأصغى فتعرف على «مرثاة» كولومبا وقال للبنت بهيئة مربعة: «أمنعك من غنائها» ثم أضاف وهو أكثر لطفاً: «ماذا تحملين يا صغيرتي؟» لم تجب شيلينا فرفع القماش الذي يلف رزمة ضخمة ورأى خبزاً ومؤناً أخرى. سأها: لمن تحملين هذا الخبز يا ابنتي؟

— إنك تعرف ذلك جيداً يا سيدي، لعمري.

في هذه اللحظة وصل رجلان رثا الملابس يحمل كل منهما بندقيّة في يده فألقيتا التحية على اورسو وقال اكبرهما سناً: «كم أنا مسرور بلقايتك من جديد! ألا تتعرف علي؟» ردّ اورسو: «كلا.»

— إن اللحية تغير وجه الإنسان. أنا براندو سافيلي، وكنت معك في الجيش.

— أهذا انت؟ ماذا تفعل هنا؟

— كانت لي قضية تنتظرني في هذا البلد!.. أنت بنت طيبة يا شيلي فقدّمي لنا بسرعة ما نأكله لأننا جائعان. هل تريد أن نشاركنا طعامنا أيها الملازم؟

— لا، شكراً.

— هل تركت أنت أيضاً الجيش؟ أعدت بدون شك لتسوية
امرك؟ ثم وجه الكلام الى رفيقه فقال: «هلم الى المائدة!»

— أيها السيد أورسو، إنني أقدم لك صديقاً كان طالباً لكنه
الان يعيش في الغابة معي منذ أن ثار لأخيه. وإذا كنت لا تريد
أن تأكل معنا، فينبغي ألا تدع الأنسة كولومبا تنتظرك، وألا
تتجول في الطرقات عندما تغيب الشمس. لِمَ خرجت دون
بندقية؟ يوجد هنا اشرار. اليوم يمكنك أن تطمئن قال
باريسيني يستقبلون المحافظ في دارهم... لكنهم غداً
سيكونون لوحدهم. إن فنستالو شاب شرير وأورلاندوسيو
ليس افضل منه. حاول أن تلقاهما الواحد بعد الآخر، لكن
كن حذراً!

— شكراً للنصيحة، لكن إذا لم يبحثا عني، فليس لدي ما
اقوله لهما.

لم يجب الفار من وجه العدالة فنهض اورسو ليذهب.
قال: «ربما التقينا يوماً في الغابة!»

* * *

عاد أورسو الى داره في ساعة متأخرة وكانت كولومبا في
انتظاره فحدثها عن الفارين من وجه العدالة اللذين التقاهما

في الغابة وقال: ربما كانا اقل شراً من اشخاص آخرين لا
يسكنون الغابة..

لم تبد سرورها، لكنها كانت راضية
لسماعه يتحدث بهذه الطريقة. مرت بضع دقائق قبل أن
تقول:

— هل تعرف يا أخي أن شارل بياتري قد مات أثناء الليل؟

— من هو بياتري هذا؟

— إنه زوج مادلين، المرأة التي كانت قرب والدنا لحظة موته
والتي تسلمت محفظته. لقد أتت تطلب مني إنشاد «مرثاة»
لزوجها فيجب أن تأتي انت ايضاً. إنهم جيراننا، وليس من
التهذيب ألا نذهب.

— أنا لا أحب كثيراً أن تغني أختي أمام الجمهور.

— إن المرثاة عادة قديمة عندنا يا أورسو وأنا الوحيدة التي ما
زالت تعرف إنشادها.

— إذهبي الى دار مادلين اذا شئت يا كولومبا سأذهب معك
إذا رأيت أن علي الذهاب إليها، لكنني أسألك ألا تُشدي
المرثاة أمام الميت، فذلك لا يليق بسنك يا أختاه.

— لقد شئت أن أغني قصيدة في اجاكسيو لتلك الفتاة

الأجنبية التي تسخر من عاداتنا الكورسيكية القديمة، أفلا
استطيع أن أقوم اليوم بذلك من أجل هؤلاء المساكين؟ ...
إنني أتألم جداً عندما أغني هكذا يا أخي لأنني أتذكر كل
اللحظات التعيسة في حياتي، لكن يجب علي أن أفعل! ...
سامر ضُ غداً لذلك ... فاسمح لي يا أخي لأنه واجب.

— إفعلي إذن ما تشائين.

وصل أورسو وأخته إلى دار بياتري حيث كان الميت
مُسجى على طاولة، وبجانبه زوجته وابنه. كانت النساء
يُشغلن جانباً من الغرفة وراءهم بينما اصطف الرجال في
جانب آخر، وقد خيم الصمت على القاعة.

قبلت كولومبا مادلين وتناولت يدها فبقيت بضعة دقائق على
هذه الحال، ثم نظرت إلى الميت برهة طويلة وانحنت عليه
بوجه شاحب وبدأت تُغني. بدأت بتوجيه الكلام إلى الميت ثم
إلى أسرته. كانت قصيدتها شديدة الجمال والحزن فبكى
سامعوها كما بكى أورسو الواقف في زاوية مظلمة من الغرفة.

وبينما كانت كولومبا تُغني، دخل غرباء هم المحافظ
والعمدة وولداه. تعرّف أورسو فوراً على عدو والده فشار
الغضب في نفسه عندما رأى الشابين يتسلمان وهما يُصغيان إلى
أخته.

رأتهما كولومبا فأكفهر وجهها وتوقفت لحظة عن الغناء ثم
تابعت مرثاتها:

سيتركك أصدقائك يا شارل بياتري
فقد بكوك.

أما من فقدت أهلها، فهي الوحيدة التي لن تبكيك.

ولم تبكيك؟

لقد غفوت وسط أسرتك

لكن الفتاة التعيسة تبكي أباه الذي اغتيل من الخلف

لقد جمعت دمه

وبذرته في بياترانيرا

وذات يوم سيغطي الدم المعادي الدم العادل

قالت تلك الكلمات وارتمت على كرسي فغطت وجهها بمنديلها
وأخذت تبكي. أحاطت بها النسوة ووجه رجال عديدون
نظرات شريرة للعمدة ولديته الذين سارعوا إلى الانصراف.

إقترب أورسو من أخته فأخذ بذراعيها وخرجا معاً. تناول
بعض الأصدقاء مديهم فوضعوها في كم سترتهم وتبعوهم
حتى باب منزلهم.

* * *

أسندت كولومبا رأسها الى كتف أخيها وأمسكت بإحدى يديه فشدت عليها يديها دون أن تستطيع النطق بكلمة واحدة. لكن الباب قُرع!

— من الطارق؟

— السيد المحافظ!

إعتذر المحافظ لحضوره المتأخر ثم قال لأورسو: «إن الأنسة نيفيل قد سلمتني هذه الرسالة الموجهة لك يا سيد ديلاريبيا. قال أورسو وهو بمنتهى السعادة: رسالة من الأنسة نيفيل!

— إنني لا احملها معي لكنك ستتسلمها خلال خمس دقائق. لقد مرض والدّها مرضاً شديداً لكن صحته تحسنت الآن، وستراها عما قريب يصلان الى بياترانسيرا... لقد حدثني كثيراً عن قصة أسرتكم المحزنة: إنك تعرف أن الناس كثيراً ما يكذبون وأنت قد تكون مخطئاً إذا...

— إنك تعبٌ جداً يا كولومبا وعليك أن تذهبي للنوم.

لكن الفتاة استمرت تنظر الى المحافظ بعينيها الكبيرتين الداكنتين، فتابع: إن السيد باريسيني يعرض عليك المصالحة

وهو مصمم على نسيان كل شيء؟ وسيسعدني انا شخصياً أن تصبحوا جيراناً طيبين.

— أنا لم أفكر أبداً يا سيدي أن المحامي باريسيني قد قتل والدي... لكنني لن أصبح أبداً صديقه. لقد جعل الناس يعتقدون أن والدي كتب الرسالة الموقعة باسم «أجوستيني» وهذه الرسالة كانت دون شك سبب موته، وهذا ما لا أستطيع نسيانه.

صمت المحافظ لحظة ثم قال: «لقد اردت أن أعلمك أننا نعرف الآن من كتب تلك الرسالة. سألت كولومبا وهي تتقدم نحو المحافظ:

«ومن هو؟»

— إنه رجلٌ خطرٌ لا يُساوي حبلاً لشنقه، يدعى توما سوبيانكي، وهو سارق. أنتم معشر الكورسيكيين لا تغفرون أبداً لمثل هؤلاء الناس. لقد أوقف واعترف أمام المحكمة أنه قد كتب تلك الرسالة.

— أنا لا اعرف هذا الرجل، فلم يفعل ذلك؟

— إنه، قالت كولومبا، رجلٌ كان يسكن مع أخيه تيودور مزرعة لوالدنا، وهو شريرٌ اعتاد الكذب.

— سوف تفهمان. إن المزرعة التي يسكنها تيودور هي نفسها التي كان باريسيني يريد استردادها من والدكما، وكان العقيد يؤجرها له لقاء مبلغ بسيط من المال، لكن باريسيني كان سيطلب مبلغاً أكبر بكثير. لذا، أراد توماسو أن يساعد أخاه فكتب الرسالة ووقعها باسم الهارب اجوستيني!

وانتما تعرفان البقية.

قالت كولومبا:

— لقد ذهب أولاندروسيو باريسيني الى باستيا منذ شهر. وربما قابل توماسو ودفع له كي يسرد هذه القصة.

رد المحافظ:

— يا آنستي، إذا استمرّيتما على هذه الحال فسيصبح من الصعب العثور يوماً على الحقيقة. وأنت يا سيدي، ماذا تعتقد؟ لقد أوقف هذا الرجل لغلطة خفيفة، فليس من المعقول أن يترك نفسه يعاقب من أجل غلطة بسيطة اجابت كولومبا بقوة: «إن العدالة لن تعاقب ابداً توماسو بيانكي لأنه مستعد لأي شيء من أجل استرداد حريته، وأنا واثقة من ذلك»

هز المحافظ كتفيه وقال: «لقد قلت لك يا سيدي كل ما

علمت به، وأنا ذاهب الآن لكني أمل أن يُنير لك العقل السبيل»

اعتذر اورسو ببضع كلمات عن كولومبا فقد كان هو ايضاً يعتقد أن توماسو قد كتب الرسالة، ونهض المحافظ للخروج قائلاً: «لو لم يكن الوقت متأخراً جداً لطلبت منك أن تأتي معي لاستلام رسالة الأنسة نيفيل، وهكذا تستطيع أن تقول للسيد باريسيني ما قلته لي فينتهي كل شيء..» صاحت كولومبا: «إن أورسو ديللارييا لن يدخل ابداً دار أحد افراد عائلة باريسيني. لقد خدعت يا سيدي فأنت لا تعرف العمدة. إنه اخبث الناس. لذا أطلب منك ألا تُكره أورسو على أن يفعل ذلك، فلن أغفره ابداً.»

قال أورسو: لقد فقدت عقلك يا كولومبا.

— يا أورسو، إن بينك وبين آل باريسيني دماً، فلن تذهب لعندهم.

— أختاه!

— لا يا أخي لن تذهب، وإلا غادرت هذا المنزل ولن تراني ابداً. ثم ارتمت على ركبتيها.

توجه المحافظ نحو الباب فتوقف وبدا عليه أنه ينتظر اورسو الذي قال:

— لا أستطيع أن أتركها الآن يا سيدي. غدا، إذا..

— سوف ارحل باكراً وأمل أن يحمل الليل النصيح لك.
قالت كولومبا:

— سأرسل بعضهم معك كي تُسلمه رسالة الأنسة نيفيل.

إنصرف المحافظ فقال أورسو لأخته: «لقد سببت لي ألماً شديداً يا كولومبا. يجب أن تفهمي!». أجابت: «لقد أمهلتنني حتى الغد، فلدي قليل من الوقت لكنني لا أزال أأمل». ثم صعدت ركضاً الى غرفتها وسمعها تفتح خزانة كان العقيد يُودعها أوراقه الهامة.

* * *

كانت الرسالة التي حُملت الى أورسو مؤلفة من أربع صفحات، سَعد بها الشاب كثيراً. شرحت الأنسة ليديا أن أباهما قد أصيب بحمى لأن قدميه قد ابتلتا بينما كان يصطاد قرب البحر، وأعلمت أورسو أنهما سيصلان بياترانيرا قريباً. وفي انتظار ذلك طلبت منه أن يصغي لنصائح المحافظ.

أعاد أورسو قراءة تلك الرسالة الطويلة ثلاث أو أربع مرات بسرور زائد متسائلاً عما إذا كانت الأنسة ليديا يمكن أن تهتم به. كان أحد سكان القرية ذاهباً في الليلة نفسها الى اجاكسيو فسارع بتحمله جواباً مُستفيضاً الى الفتاة.

أمضت كولومبا معظم الليل بقراءة أوراق قديمة، وقبل طلوع النهار بقليل أدخلت الى بيتها رجلين رثي الملابس بدأت باقتيادهما الى المطبخ حيث قدمت لهما طعاماً. أما من هما هذان الرجلان، فهذا ما سنعرفه عما قليل.

* * *

في حوالي الساعة السادسة صباحاً أتى من يقول لكولومبا إن المحافظ على وشك الرحيل وإنه ينتظر أخاها فقالت: «إن أخي قد وقع في السلم وهو لا يستطيع المشي. فهل تريد أن تطلب من السيد المحافظ أن يعذرنا؟ قل له إننا سنكون جدّ مسرورين لو تكرّم بالحضور الى هنا..»

وعندما نزل أورسو من غرفته قالت له كولومبا بكثير من الهدوء: «إن السيد المحافظ يطلب منك أن تنتظره هنا». بعد نصف ساعة فتح بابها ودخل المحافظ يتبعه العمدة وولدها فتعجب لأنه وجد أورسو واقفاً يسير دون عناء. عندئذ اعتذرت كولومبا لكذبتها وطلبت منه المَعذرة مضيضة: «سيدي المحافظ، لو كنت تسكن داراً أخرى لذهب أخي البارحة لتحيتك».

اعتذر أورسو بدوره وشكا بقوة من تصرفات أخته.. فعرف المحافظ وباريسيبي العجوز أنه صادق لكن وكدي

العمدة لم يكونا من هذا الرأي فقال أورلاندوسيو: «إنهم يسخرون منا» وقال فنستالو: «لو كانت أختي لانتزعت منها بسرعة الرغبة في العودة الى مثل هذا التصرف...»

سمع أورسو هذه الكلمات فنظر الى الشابين عابسا لكن الجميع جلسوا وبقيت كولومبا واقفة قرب باب المطبخ. عندئذ بدأ المحافظ كلامه:

«إن أسرتكما يجب أن تصبحا صديقتين، وهذا مما يسعدني. إن أورسو يا سيدي العمدة، لم يظن أبدا أنك قد قتلت أباه...»

لكن كولومبا اتجهت نحوه وفي يدها ورقة فقالت: سيكون من دواعي سروري أن أرى نهاية الحرب بين عائلتي، لكن وقبل ذلك يجب شرح كل شيء. سيدي المحافظ، لقد قلت لك البارحة أن أورلاندوسيو قد قابل توماسوبيانكي في باستيا...»

صاح أورلاندوسيو:

— هذا كذب، فأنا لم أره.

— لقد قلت أن توماسو قد كتب الرسالة باسم أجوستيني كي يحتفظ أخوه بمزرعة والدي.

قال المحافظ: «هذا صحيح.»

— هذه الرسالة مؤرخة في ١١ تموز حينما كان توماسو عند أخيه.

— قال العمدة بقليل من الهدوء: نعم. فصاحت كولومبا:

— هذه القضية لم تكن تهم توماسو لأن أخاه تيودور كان قد كتب لوالده أنه سترك مزرعتنا وهاكم رسالته المؤرخة في أول تموز.

أعطت كولومبا الورقة للمحافظ فتعجب الجميع وصاح أورلاندوسيو وهو ينهض غاضبا:

— إنهم يسخرون منا فلنذهب.

قالت كولومبا:

— إنظروا، فيجب أن أبرهن أن هؤلاء السادة قد كذبوا أيضا.

فتحت باب المطبخ فدخل القاعة براندولاسيو وصديقه جيوكانتو كاستريكوني والكلب بريسكو. كانا غير مسلحين فنهض العمدة خائفا، ووقف ولداه أمامه بشجاعة ويدهما في جيبيهما تبحث فيها عن سكينهما. أمسك أورسو بعنق براندولاسيو وصاح به: «ماذا أتيت تفعل هنا أيها التبعيس؟»

حاول العمدة أن يفتح الباب لكنه كان قد أغلق من

الخارج . قال براندولاسيو: «أيها السادة الطيبون، لا تخافوا مني، وأنت يا سيدي المحافظ، أنا في خدمتك. أيها الملازم سوف تقتلني، فكن أكثر لطفاً. لقد أتينا الى هنا لنقول ما نعرفه. هيا، تكلم يا جيوكانتو، أنت الذي كنت طالباً.
قال الطالب:

— سيدي المحافظ، لم يكن لي شرف معرفة الأنسة التي طلبت مني أن أقص عليك ما أعرفه عن توماسو بيانكي. لقد اعتقل في باستيا في نفس الوقت الذي اعتقلت فيه منذ ثلاثة أسابيع...

— ليس لدي ما أسمعُه من رجلٍ مثلك...

— هل أنت السيد في دارك يا سيد ديللاريبيبا؟ مُر بفتح هذا الباب.

قالت كولومبا:

— سيدي المحافظ، تفضل بالإصغاء الى هذا الرجل. أنت هنا كي تؤمن العدالة للجميع، ومن واجبك أن تبحث عن الحقيقة. تكلم يا جيوكانتو.

صاح الثلاثة من آل باريسيني:

— لا تصغ إليه!

قال الهارب من وجه العدالة وهو يتنسم:

— إذا تكلم الجميع في وقت واحد فلن نتفاهم. عندما كنت موقوفاً كان توماسو هذا جاري لا صديقي. وكان السيد أورلاندوسيو يأتي غالباً ليراه...

صاح الأخوان معاً:

— هذا كذب.

— كان لدى توماسو نفوذ ولم يكن يعوزه شيء. وذات يوم قال لي: «إن المحامي باريسيني وعدني بإخراجي من هنا، وسأذهب أبيض كالثلج وفي جيبتي نقود كثيرة.»

قال أورلاندوسيو:

— كل ما يقوله هذا الرجل ما هو إلا مجموعة من الأكاذيب.

قال براندولاسيو:

— لا تسخر من الطالب يا أورلاندوسيو فهو يعرف كيف ينطق بندقية.

قال المحافظ وهو يضرب الأرض بقدمه:

— ألن تدعني اخرج يا سيد ديللاريبيبا؟

فصاح أورسو:

— افتحوا الباب .

وقال أورلاندوسيو:

— انتظروا لحظة . علينا أن نذهب نحن أولاً .

رماه المحافظ بنظرة باردة وخرج المطلوبان من الحديقة . قال أورسو: «يا سيد باريسيني ، أنت رجل شرير وكاذب . سأشكوك للقاضي فرما كنت قاتلاً .

— وانا يا سيد ديللاريبيا سأشتكي ايضاً : لقد استقدمت هذين الفارين من وجه العدالة الى دارك ، وسيأمر السيد المحافظ الشرطة باعتقالك .

— إن المحافظ سيؤدّي واجبه ، وسينفذ العدالة . إنني أوجه الكلام إليكم جميعاً أيها السادة . .

خرج العمدة وفنستالو من القاعة وتبعهما أورلاندوسيو وهو يتراجع ، لكن أورسو قال له : «إن والدك رجل عجوز يمكنني سحقه بضربة واحدة ، لكنك ستدفع الثمن أنت وأخوك . . .

شهر أورلاندوسيو سكينه وارتمى على أورسو كالمجنون ، لكن كولومبا أمسكت بذراعه ولوته بقوة . في هذه الأثناء وجه إليه أورسو لكمة في وجهه جعلته يتراجع بضع خطوات . سقطت السكين من يداورلاندوسيو ، لكن فنستالو كان شاهراً

مديته فدخل مجدداً الى الغرفة عندما قفزت كولومبا الى بندقيته وبرهنت له أنه لا يستطيع ان يكسب .

صاح أورلاندوسيو وهو يغلق باب القاعة بقوة : الى وقت قريب يا أورس انطون . وقال المحافظ : «ما هذا البلد ! لقد أخطأت يا سيد ديللاريبيا ، وأنا أطلب إليك الانتظار ريثما تبت العدالة في هذه القضية المنكودة .

— نعم يا سيدي المحافظ ، لقد أخطأت بضرب أورلاندوسيو لكنني قد فعلت ولم أعد أستطيع التراجع ، فيجب أن أقاتله .

— لا إنه سيطلق عليك رصاصة في ظهره .

— إن أورلاندوسيو شجاع ولقد سارع بشهر سكينه . ولربما فعلت ما فعل لو كنت مكانه ، إنني سعيد لأن يد أختي ليست يد بنت صغيرة .

صاح المحافظ : «لن تتقاتلا ، إنني امنعكما من ذلك .

— هذه أمورنا الخاصة .

— إنني اقول لكم انكما لن تتقاتلا .

— بوسعك أن تقتلني . . . ، هذا إذا سلمت نفسي . .

أضافت كولومبا:
— إذا أمرت باعتقال أخى فسيدافع عنه نصف القرية
وستطلق البنادق لوحدها.
— إذا أراد العمدة اعتقالى فسأدافع عن نفسى ..

قال المحافظ:

— إعتباراً من هذا اليوم، لم يعد باريسيني عمدة. إننى
أطلب منك القليل: إبقى هادئاً فى دارك، وسأعود مع القاضى
خلال ثلاثة أيام. عِدْنِى أَلَّا تُقَاتِلَ.

— لا أستطيع أن أعدك بذلك يا سيدى فأنا اعتقد أن
أورلاندوسيو سيطلب منى القتال مبارزة.

— إننى أطلب منك فقط ألا تبحث عن أورلاندوسيو.

— أعدك بذلك.

— يجب أن أذهب .. كم من المصائب ربما تكونين قد
هيايتها اليوم!

ثم ذهب. قالت كولومبا:

«انت يا أورسولست هنا على البر، فأورلاندوسيو لا يفقه»

شيئاً من مبارزاتك. لذا لا ينبغي أن يموت هذا الشئ مية
جميلة.

— أنت امرأة قوية يا عزيزتى كولومبا، وأنا مدين لك
بالكثير. لقد انقذتيني من طعنة سكين، لكن دعيني أنصرف
فهناك أمور لا تدركينها. أعطني ما آكله.

وصل خمسة أو ستة فلاحين استدعتهم كولومبا لحراسة دار
آل ديللاريبيا، وأتى عدة أشخاص يضعون أنفسهم فى خدمة
أورسو. حتى إن الطالب - الهارب نفسه كتب له رسالة يعده
فيها أن يأتى لمساعدته مع براندولاسيو إذا أقحم العمدة
الشرطة فى هذه القضية.

* * *

إنقضى اليوم التالى بهدوء. وفى المساء أرت كولومبا أخاها
بسروير رسالة تلقتها من الأنسة نيفيل:

عزيزتى الأنسة كولومبا.

علمت بكثير من السروير ورسالة من أخيك أنه لم يعد
لكما أعداء فى بياترانيرا فأسعدنى ذلك جداً. إن والدى لم يعد
يحب أجاكسيو منذ أن غاب عنها أخوك فلم يعد يتحدث عن
الحرب أو يصطاد معه. وفى خلال يومين سأتى لأطلب منك

شيئاً من الأجبانِ الجبليةِ. فإلى القريبِ يا عزيزتي الأنسة
كولومبا.

صديقتك ليديا نيفيل.

قال أورسو: ألم تتلقِ إذن رسالتي الثانية؟

— وهل قلتَ لها ألا تأتي؟

— بعد الذي حصل لنا، لا نستطيعُ استقبالَ احد.

— كانت تقولُ لي أنها تودُ رؤيةَ ثارِ جميل. وإذا شئتَ

فسنُريها يا أورسو كيف نعرفُ أنْ نسحقَ اعداءنا.

— هل تعرفينِ أنْ الخالقَ قد أخطأ حينما صنعَ منكِ امرأةً يا

كولومبا؟ كان من الجائز أنْ تُصبحي جُندياً ممتازاً.

— ربّما. على كلِّ حال، سأصنعُ جيناً طازجاً.

— هذا ليس ضرورياً إذ يجبُ أنْ تُرسلَ بعضهم لتحذيرهما

وإيقافهما قبل أنْ يتحرّكا.

— ماذا! أتريدُ إرسالَ بعضهم في مثل هذا الوقت! . . . كم

أرثي للهاربين من العدالةِ المساكينِ في هذه العاصفة! أتدري

ما الذي يجبُ عملهُ يا أورسو؟ إذا هدأت العاصفة، إرحلْ

غداً باكراً وسيكونُ من السهلِ عليك أنْ تلقاهما. وإذا أصرّاً

على المجيء فسنسقبَلهما بسرورٍ زائد.

— أنا موافق، فلنذهبْ للنوم.

— ربّما تعتقدُ يا أورسو أنني كنتُ أريدُ الضحك عندما

حدثتُك عن سحقِ اعدائنا. هل تعرفُ أننا أقوياء بمعدلِ اثنين

ضدَّ واحدٍ على الأقل؟ وإذا اردتَ فسأذهبُ الى الساحةِ وأسخرُ

من نسايتهم فقد يخرجون. . . إنهم خائفون جداً. . . وربما

أطلقوا النارَ عليّ من بنادقهم وأخطأوني وعندئذٍ يُحسَمُ كلُّ شيءٍ

ويكونون همُ البادئين. سحقاً لهم. . .

صدقُ أختك يا أورسو، فالملابسُ السوداءُ التي ستأثري

سوف تقولُ كثيراً من الكلماتِ التي لا معنى لها وذلك دون

جدوى لأنَّ رجلَ القانونِ العجوز سيرُيهم النجومَ وقتَ

الظهيرة.

وقال أورسو متعجباً:

— أنتِ خفيفةٌ يا اختي الحلوة، لكن اطمئني إذا لم اعمل

على شقِّ آل باريسيني فسأتدبّرُ امري كي تُنفذَ العدالة.

— كلما عجلتَ كان ذلك افضل. أي جوادٍ ستمنطي غداً

يا أورس انطون؟

— الأسود، فلم السؤال؟

— لأقدم له طعاماً.

صعد أورسو الى غرفته وانتظرت كولومبا. وعندما اعتقدت أنه قد نام تناولت سكيناً وانتعلت حذاءً ضخماً ودخلت الحديقة دون أن تحدث ضجة، بعد ذلك ذهبت الى الحقل حيث توجد الخيول فجرحت بسكينها أذن الحصان الأسود. وبدأ الحيوان المسكين يركض وهو يصيح. سرت كولومبا وعادت الى دارها دون أن تحدث ضجة. كانت في المطبخ عندما ظهر أورسو. سألته: «ما الذي يحدث؟» فأجابها: «خيل إلي أن باب الحديقة يفتح».

— مستحيل وإلا لسمعنا الكلب. إنني أحب أن أرى يا أخي أنك تدرك الخطر.
— إن دروسك تؤتي ثمارها. مساء سعيداً.

في الصباح نزل باكراً من غرفته، حسن الهندام، لكنه لم ينس أن يضع سكينه في جيبه أو أن يأخذ بندقية العقيد. شرب فنجان قهوة ثم ذهب الى الحقل يقتاد جواده فتبعته كولومبا. لكن أورسو توقف إذ رأى أذن جواده الأسود الجميل دامية. فقال: سوف يدفع لي آل باريسيني الثمن! إن جرح حصان العدو في كورسيكا يعني السخيرة منه وتوغده بموت قريب.

صاحت كولومبا: «ما الذي تنتظره؟ إنهم يأتون فيجرحون

جيانا دون أن نرد!». وصاح الفلاحون الذين سمعوا كل شيء: «الشار!»

رد أورسو: إنني انا السيد هنا وأريد أن أطاع. وربما قتلت أول المتحدثين عن القتل. أحضروا لي الجواد الرمادي.

قالت كولومبا: كيف ذلك يا أورسو؟ أيجرح جوادك فلا تفعل شيئاً؟
— لقد سبق أن قلت لك أن العدالة ستأر لي من أولئك الناس. إنهم يظهرون شجاعتهم ضد الحيوانات فقط...
والأ فلن تحتاجي لتذكيري بأنني ابن أبي.

— حسناً فلنتظر.

— انه لامر حسن جداً يا أختاه أن يكون المرء شجاعاً لكن يجب أن تستعدي الآن كي تحسني استقبال أصدقائنا. إنني ذاهب فتعال لي لتقبلي.

— لن تذهب لوحديك يا أورسو.

— لست بحاجة لأحد وتأكدي أنني لن أدع أذني تقطع.

* * *

سار أورسو في طريقه. إنه الآن يفكر بالآنسة نيفيل وقد نسي اعداءه. لكنه رأى أمامه شيلينا الصغيرة التي قالت له:

— إلى أين تذهب هكذا يا أورس انظرون؟ إن عدوك
أورلاندوسيو قريب من هنا وهو ينتظرك. عداً عداً

— آه! إنه ينتظرني! هل رأيته؟ في أي اتجاه كان يسير؟

— كان نازلاً من هناك في الاتجاه الذي تقصده.

— شكراً.

— انتظر عمي يا أورس انظرون فمعه لن يكون هناك
خطر.

— لا تخافي يا شيلي؛ إنني لست بحاجة لعمك.

— سأسير أمامك إذا شئت.

— شكراً، شكراً. فالأمر لا يستحق هذا العناء.

ذهب أورسو بسرعة في الاتجاه الذي دلته عليه البنت
الصغيرة. كان يتطلع بانتباه في كل اتجاه ويتوقف أحياناً كي
يصغي. كانت الطريق التي يسلكها الآن تجتاز غابة احترقت
منذ وقت قليل، فأصبحت الأرض جرداء لا تخفي أحداً.
اضطر أورسو للتزول لأن الطريق سريعة الانحدار. وعن
بعيد رأى حقولاً محاطة بجدران حجرية.

كان على بُعد أقل من عشرين متراً من هناك عندما رأى

أمامه بندقيّة ثم رأساً ظهرت فوق أحد الجدران. انخفضت
البندقيّة فتعرّف على أورلاندوسيو وهو جاهز لاطلاق النار.
سارع أورسو لرفع بندقيته ونظر الاثنان الى بعضهما لحظة
قصيرة.

صاح أورسو: «قاتل». وكان لا يزال يتكلم عندما أطلقت
النار من بندقيّة أورلاندوسيو. وفي نفس الوقت تقريباً انطلق
عيار ناري ثانٍ من بندقيّة على اليسار في الطرف الآخر من
الطريق أطلقت رجل لم يره. أصابته الطلقتان: الأولى وهي
طلقة أورلاندوسيو اخترقت ذراعهُ اليسرى والأخرى في
صدره، فمزقت سترته وأوقفها نصل سكينه فجرحته جرحاً
خفيفاً. تدلّت ذراعهُ اليسرى ثقيلة على ساقه فخفض بندقيته
قليلاً لكنه رفعها بسرعة، وبيده اليمنى فقط أطلق النار على
أورلاندوسيو فلم يعد يرى رأس عدوه. عندئذ التفت الى
اليسار وأطلق طلقة الثانية على رجل محاط بالدخان لم يكن
يراه تقريباً فاختفى هذا أيضاً. تابعت الأربع طلقات بسرعة
كبيرة، وبعد طلقة أورسو الأخيرة، عاد الصمت فخيّم على
كل شيء وتصاعد الدخان الخارج من سلاحه بسيط نحو
السما. لم تعد هناك أية حركة أو أقل ضجة وراء الجدران.

توقع أورسو عياراً نارياً آخر فسار بضع خطوات كي يقف

وراء شجرة مُحترقة بقيت واقفة. وبسرعة فائقة وضعَ طلقتين جديدتين في بندقيته. كانت ذراعُه اليسرى تؤلمه جداً فما هو مصير عدوه؟ لم يعد يسمع صوتاً فهل ماتا أم أنهما ينتظران اللحظة المناسبة لإطلاق النار عليه؟ شعر بضغفٍ شديدٍ فركزَ بندقيته على غصنٍ من الشجرة المحترقة وأعدَّ إصبعه لإطلاق النار بينما كانت عينه تمنعُ النظرَ الى الجدرانِ وأذنه تُصغي لأقلَّ صوت. بقي هكذا دقائقَ بدت له سنين.

أخيراً سمعَ صيحةَ وراءه، وتوقفَ كلبُ أمامه. إنه بريسكو يُنبئُ بقدوم سيده. صاح أورسو: «إليَّ يا براندوا» سأله براندولاسيو وهو يعدو نحوه:

— آوه أورس انطون، هل انت مجروح؟

— نعم في ذراعي.

— في الذراع؟ ليس هذا شيئاً يذكرك! والآخر؟

— أعتقد أنني قد أصبته.

تبع براندولاسيو كلبه وذهبَ نحو الحقلِ فنظرَ الى الجهة الأخرى من السور. وعندئذٍ قال وهو يخلعُ قبعته: «أحييك يا سيد اورلاندوسيو ثم التفتَ نحو أورسو قائلاً: «هذا ما أدعوه

رجلاً دُبرَ امرؤه.» سأل أورسو وهو يتنفس بصعوبة: «هل هو على قيد الحياة؟

— هذا غيرُ ممكنٍ بالرصاصة التي وضعتها في عينه. ما هذا الثقب!.. عندما سمعتُ أول الأمر صوتَ الطلقتين، قلتُ لنفسي «لقد قتلوا الملازم!» ثم سمعتُ صوتاً آخر: بوم، بوم. فقلت: ها هي البندقيةُ الإنكليزيةُ تتكلم. إنها بندقيةٌ جيدة... لكن ما الذي تُريده أيضاً يا بريسكو؟

قاده الكلبُ نحو الحقلِ الآخر فقال: ضربةٌ مزدوجة، لا شيء غيرَ هذا. سأل أورسو:

— ما الأمرُ بحق الله؟

— أعرفُ شخصاً سيُقدمُ له اليوم طبقٌ غريبٌ لما بعد الأكل. إنه المحامي باريسيني. وهذا لحمٌ مذبحةٍ بالقدر المطلوب.

— ماذا! هل ماتَ فنستالو أيضاً؟

— إنه جدٌ ميّت. ما هذه الضربةُ يا أورس انطون! لن يحدثَ لفتى طيب مثلي أن يطلقَ طلقةً مزدوجةً على الشرطة. لنرذراعك. هذا ليس شيئاً يذكر. اشربْ نقطةً من النبيذ... ضربةٌ مزدوجة... الاثنان ماتا!.. آه، ها هي شيلينا.

اشتدَّ شحوبُ وجهِ أورشو وقال المطلوب : اذهبي يا شيلي
وانظري وراءَ هذا الجدار . . . أرايتِ؟ . . . أنظري الآن وراءَ
ذلك الجدار . . . هذا من عملِ السيد . أمّا أنا فلا أصلحُ
لشيء .

قالت شيلينا :

— سئسُ الآنسةَ جداً لكنها ستحزنُ عندما تعلم أنَّك
مجروح .

— هلمَّ يا أورش انطون إمتطِ جوادك .
أجاب أورشو بصعوبة :

— إلى أين تُريدُني أنْ اذهب يا براندو؟
— إلى الغابة يا أورش انطون .

— أَلَمْ أعدُ أستطيع أنْ أَمَلْ شيئاً؟

— أو كنتَ تأملُ أفضلَ من ذلك ببندقيةِ ذاتِ طلقتين؟
كيف اصابك؟

— لقد كانا البادئين باطلاق النار .

— هذا صحيحٌ لقد نسيت : بيف ! بيف ! بوم ! بوم ! ضربةٌ
من راحةِ يدي واحدة . إذا تفوّقَ احدُ عليك فسأشنقُ نفسي .

تعالَ قبلَ أنْ تذهبَ وانظرْ الى عملِكَ الجميل .

لم يشأَ أورشو أنْ يرى التعيسين اللذين قتلها ، ولم يكن
ليفعلَ ذلك لقاءَ أيِّ شيءٍ في هذا العالم . أعينَ على امتطاءِ
جوادهِ وأسرعَ بالذهاب .

* * *

بعدَ رحيلِ أورشو، علمت كولومبا أن آل باريسيني
يبحثونَ عن أخيها في الريف ، فلم تعدْ مُطمئنة . وحوالي
الساعةِ الحادية عشرةَ سمعتْ وقعَ حوافرِ جوادٍ في السّاحة ،
وكانتْ للعقيدِ وابنته . خرجتْ وسألتهما : « هل رأيتما أخي؟ أيُّ
طريقٍ سلكتما؟ في أيّة ساعةٍ انطلقتما؟ أنا لا أستطيعُ أنْ أفهم
كيف أنكم لم تلتقوا .
قال العقيد :

— ربّما سلَّكْ أخوكِ الطريقَ العلّيا ، أمّا نحنُ فقد جئنا من
الطريقِ السفلى . أنا واثقٌ أنْ ديللارييا ربّما صادفَ طرائدَ ،
فلم يستطعْ مقاومةَ لذة الصيد .

— هل سمعتما طلقاتِ بندقية؟

— اجل ، اربعُ طلقات ؛ اثنتان منها اقوى من الآخرين . لقد
قلتُ لابنتي : « هذا دون شك ديللارييا يصطاد ، فليس هناك
بندقيةٌ أخرى غيرَ بندقيتي تستطيعُ إحداثَ مثلِ هذا الصوت .

شَحَبَ وجهُ كولومبا فأدركتِ الأنسة ليديا بسرعة ما يدورُ
بفكرها. وبعد صمتٍ طويلٍ قالت كولومبا: «هل سمعتمُ
الطَلَقَتَيْنِ القويتَيْنِ قبلَ أو بعدَ الأخيرين؟ إن الأمر في غاية
الأهمية!»

لكن لا العقيدَ ولا ابنته لم ينتبها الى هذه النقطة.

حوالي الساعة الواحدة لم يعد أيُّ من الرجال الذين
أرسلتهم كولومبا ورغم ذلك فقد استعادت شجاعتها وأجبرت
صديقينها على الجلوس الى المائدة فأكل العقيدُ جيداً ولم
تلمس الفتاتان شيئاً.

فجأة سمعت كولومبا صوتَ جوادٍ فوقفت قائلة: انه أخي
هذه المرة! لكنها رأت شيلينا على جوادٍ أورسو فصاحت: «لقد
مات أخي».

سقط القدحُ من يدِ العقيدِ وبدأتِ الأنسةُ نيفيل تبكي.
ركض الجميع الى بابِ المنزلِ وقبل ان تتمكن شيلينا من القفز
عن الجواد اختطفتها كولومبا كالريشة وضمتها اليها بقوة
فهمت الطفلة المخيفة نظرتها وقالت: «إنه حي».

تركتها كولومبا تنزل الى الأرضِ وسألتها عابسةً:
«والآخرون؟»

— ميثان.

عندئذٍ احمرَّ وجهُ كولومبا وألقت نظرةً سريعةً على دار آل
باريسيوني ثم قالت باسمه لأصدقائها: «لنعدُ ونتناول القهوة».

قصّت شيلينا ما حدث بالكورسيكية على كولومبا التي قالتها
بالفرنسية للآنسة نيفيل والعقيد، واستوقفت الطفلة خمس أو
ست مرات كي يجعلها تكرر أن براندولاسيو يرى عدم خطورة
الجرح. أضافت شيلينا أن أورسو يطلبُ ورقاً كي يكتب
للآنسة نيفيل قبل رحيلها. قالت كولومبا وهي تعانق الأنسة
نيفيل: «سوف تبقىين معي ايتها الصديقة العزيزة وستساعديننا
على العناية به... رجلان قويان! خيفان! وهو بمفرده،
مجروحٌ وبذراعٍ واحدة!... لقد قتل الاثنين! أية شجاعة
تلك ايها العقيد! أو يا آنسة نيفيل، لكم يسعدُ المرءُ بالعيش
في بلدٍ كبلدكم!.. تذكر يا سيدي العقيد أنك قد سمعت
الأربع طلاقاتِ وأنتك قلت لي أن أورسو كان ثاني المطلقين.

كان النهارُ قد تقدّم عندما حُلّت للمحامي باريسيني جثّا
ولديه، وكل منهما على جوادٍ يقوده فلاح. كان بعضُ
الأصدقاء يتبعون ومعهم الشرطة التي تصل دائماً متأخرة. ثم
اتت بعضُ النسوة يسيكن ويصحن، تتوسطهن مربية
اورلاندوسيو. أمّا الأبُ المسكينُ فقد كان منظره مؤلماً وهو

يتنقل من جثة لأخرى فيلمس رأسيهما اللذين لطخهما التراب
ويقبل الشفاة المزرقة. كان يفتح فمه أحياناً ليتكلم، فلا
تصدر عنه أية كلمة.

علت صيحات النساء والرجال عند مرورهم أمام دار
أورسو، وتجراً بعض الفلاحين من اصدقاء ديلاريبيا على
اسماع صوتهم، فبدأ الآخرون يصيحون: «التار! التار!»
قذفت بعض الحجارة وأطلق عياران ناريتان على شبابيك
القاعة التي كانت فيها كولومبا مع اصدقائها فتطايرت قطع من
الحشب حتى الطاولة. أخذت الأنسة ليديا تصيح، وتناول
العقيد بندقيته، اما كولومبا فركضت الى الباب قبل أن يتمكن
احد من ايقافها وفتحته ثم وقفت ممدودة الذراعين باتجاه
اعدائها وصاحت: «أيها الرجال الجبناء إنكم تطلقون النار
على النساء والأجانب! هل أنتم كورسيكيون؟ هل أنتم
رجال؟ أنتم لا تعرفون سوى القتل من الخلف. تقدّموا إنني
بمفردي وأخي بعيد. أقتلوني واقتلوا اصدقائي فأنتم لا
تجيدون غير ذلك. . أنتم لا تجرؤون لأنكم خائفون
وتعلمون اننا سننتقم. اذهبوا وابكو كالنساء فنحن لا نطلب
منكم مزيداً من الدّم. »

كان في كلمات كولومبا شيء خفيف، وعندما رآها الناس
خافوا وتراجعوا. أعد بعض الفلاحين من اصدقاء ديلاريبيا

اسلحتهم، لكن الشرطة افادت من هذه الحركة فتوسطت
الفتتين. اوقفت كولومبا أنصارها قائلة: «دعوا هؤلاء المساكين
يكونوا واتركوا هذا العجوز يحمل ولديه. إن هذا الحيوان
المهرم لم تعد له اسنان للعض. تذكر يا جيديس باريسيني
المحفظة المملوءة دماً. لقد كتب فيها والذي ما تدين به فدفع
ولداك الثمن. لم يعد أحدنا مديناً للآخر، ايها العجوز
باريسيني. »

ثم أغلقت الباب وقالت للعقيد: «أسألك المَعذرة عن
مواطني يا سيدي إذ لم أكن أعتقد أن الكورسيكيين يمكن أن
يطلقوا النار على الأجانب، فأنا منزعة عن بلدي. »

* * *

عاد المحافظ الى بياترانيرا مع الشرطة وأحضر القضاة الذين
عليهم إلقاء الضوء على تلك القضية. ثم ذهب لرؤية العقيد
نيفيل ولم يخف عليه أن القضية تسير لغير صالح أورسو.
قال: إنك تعرف أنه لم يكن هناك أحد كي يسرد علينا ما
حدث. فهذان الشابان التعيسان كانا كثيري الشجاعة، لذا
يعتقد الجميع أن الهاربين من وجه العدالة قد ساعدوا أورسو
الذي لا يزال يقربهم.

قال العقيد: هذا مستحيل، فالسيد ديلاريبيا رجل
مستقيم وأنا مسؤول عنه.

— أعتقدُ ذلك لكنَّ القضاةَ كما يبدو لا يفهمونَ الأمرَ
هكذا. صحيحٌ أنَ هناكَ طفلةً سمعتُ كما تقولُ أربعَ عباراتٍ
ناريةَ كانَ الأخيرانِ منها أقوى من الآخرين، وصدرتا عن
بندقيةِ كبندقيةِ السيدِ ديللاريبيا لكنَّ هذهَ الطفلةَ هي بنتُ أخٍ
أحدِ الهاريين من العدالة.

قالت الأنسةُ ليديا:

— لقد كنّا تلكَ اللَّحظةِ في الطريقِ وسمعنا نحن أيضاً تلكَ
العبارات.

— حقاً؟ هذا امرٌ هام. وأنتَ أيها العقيد هل سمعتَ تلكَ
الطلقات؟

بادرتِ الأنسةُ نيفيل إلى الإجابة:

— أجل، إن والدي المعتادَ على الأسلحةِ هو الذي قال: ها
هو السيد ديللاريبيا يُطلقُ النارَ من بندقيتي.

— وهذان العيارانِ الناريان اللذان تعرفتَ عليهما كانا
الأخيرين؟

— الأخيرين، أليس كذلك يا والدي؟

لم يكنِ العقيدُ يتذكرُ شيئاً لكنه كان دائماً من رأيِ ابنتِهِ.
قال المحافظ: يجبُ أنْ نقولَ ذلك فوراً للقضاةِ أيها العقيد.

ونحن ننتظرُ أيضاً طبيباً يفحصُ الجثثَ ويقولُ لنا إذا كانتِ
الجراحُ قد سببها هذا السلاح.

— إنني أنا الذي اعطيتهُ لأورسو وكان بودي أنْ أعرفَ أنها
في قاعِ البحر... أريدُ أنْ أقول... يا للفتى الشجاع! إنني
جدُّ مسرورٍ لأنها كانت بين يديه فلولا بندقيتي الـ «مانتون» لا
أدري كيف كان يستطيعُ الخلاص.

* * *

ذاتَ صباحٍ جميلٍ من نيسان كان العقيدُ سيرتوماس نيفيل
وابنته التي تزوجت منذ أيام قليلة وأورسو وكولومبا خارجينَ
من مدينةِ بيزا في عربةٍ للتنزه في الريفِ الإيطالي الغني
بالنقوشِ القديمة، توقف أورسو وزوجتهُ لرسمِ جسرِ رومانيٍّ
قديم.

ولما لم يكنِ العقيدُ وكولومبا يهتمان بالرَّسم، فلقد تركاهما
لوحدهما، قال العقيد: لنذهبْ إلى المزرعةِ المُجاورة حيثُ
نجدُ بعضَ الحليبِ والثمارِ بانتظارهما.

— أنتَ على حقٍّ فاعطني ذراعَكَ.

— إنكِ تُصبحين في غايةِ اللطفِ يا كولومبا وستزوجين
قريباً.

— أنا أتزوج! ومن أتزوج ابنِ أخي، عندما يولدُ لأورسو؟

من سيعلمه التحدث بالكورسيكية؟ أجل سيتحدث
بالكورسيكية.

— لنتظر أولاً مجيء ابن الأخ ثم نعلمينه اللعب بالسكين
إذا أردت.

— لقد انتهت السكاكين فلندخل الى هذه المزرعة.

وبينما كان العقيد يشرب قليلاً من النبيذ البارد، رأت
كولومبا في طرف الحديقة عجوزاً جالساً في الشمس، يبدو
عليه المرض بخدييه الغائرين وعينييه الخامدتين. كان نحيلاً
جداً أشبه بالميت منه بالمرضى. لاحظت المزارعة ذلك فقالت:
«هذا العجوز المسكين كورسيكي حلت به المصائب في بلده:
فلقد مات ولداه بطريقة مخيفة. يُقال يا آنستي إن
الكورسيكيين غير لطيفين مع اعدائهم. إن هذا السيد
المسكين الآن نزيل عند قريبة له هي صاحبة هذه المزرعة وهو
لا ينطق بثلاث كلمات لم يعد بكامل عقله ويقول الطبيب إن
ذلك سيكون من حسن حظّه.

— يجب أن نتحدثي إليه قليلاً يا آنسة.

قالت كولومبا وهي تبسم: «سرى ذلك.»

إقتربت من العجوز فحجب ظلها الشمس عنه. عندئذ
رفع المجنون المسكين رأسه وأطال النظر الى كولومبا التي بقيت

تبسم. مر بيده على جبهته وأغمض عينيه تحت نظر كولومبا
ثم فتحهما وتحركت شفاهه. أراد أن يمد يديه الى الامام لكنه
بقي مسمراً على كرسيه دون أن يتكلم أو يتحرك وشرع
بالبكاء.

قالت المزارعة: «إنها المرة الأولى التي أراه فيها على هذه
الحال.»

صاح العجوز:

— يا إلهي! ألسن مسرورة؟ هذه الورقة التي احرقتها ما
الذي فعلته لقراءتها؟ لكن لماذا كلا الاثنين؟ أورلاندوسيو، لم
تستطيعي أن تقرئي شيئاً ضده... كان عليك أن تتركي لي
واحداً... أورلاندوسيو... أنت لم تقرئي اسمه.

قالت كولومبا بصوت منخفض وبالكورسيكية:

— كان يلزمني كلا الاثنين. لقد سقطت الأغصان ولو لم
تكن الشجرة شبه ميتة لقطعناها. لا تشك، فليس لديك وقت
طويل للانتظار. أما أنا فقد انتظرت سنتين..»

حاول العجوز أن يصيح فسقط رأسه على صدره. أدارت
له كولومبا ظهرها وعادت نحو العقيد وهي تردد بعض كلمات
مرثاة: تلزمني اليد التي قتلت والعين التي صوبت والقلب
الذي فكر..»

قال لها العقيد: «ما بالك؟ إنني أجدُ فيكِ الهيئةَ التي كنتِ عليها في بياترانيرا، ذلك اليوم الذي أطلق فيه علينا الرصاصُ أثناءَ العشاء.

— لقد تذكرتُ كورسيكا... لكن الأمر انتهى... سيكونُ لي ابنُ أخٍ جميل اليسَ كذلك؟... آه يا للأسماءِ الجميلة التي سأطلقها عليه! جيلنوسيو، توماسو، أورسو، ليوني.»

- أسئلة**
- ١ — مَنْ هم المسافرون الى كورسيكا؟
 - ٢ — لم توقف البحارُ عن الغناء؟
 - ٣ — لِمَ انتشرتْ عادة الثأر في كورسيكا؟
 - ٤ — ما هي هوايةُ الأنسة نيفيل؟
 - ٥ — ما هو رأيُ الأنسة نيفيل بالثأر؟
 - ٦ — ما رأيك ببقاء كولومبا وأورسو؟
 - ٧ — لم أرادتْ كولومبا الحصولَ على إحدى بنادقِ العقيد؟
 - ٨ — ما خلاصةُ المِرثاة التي غنتها كولومبا للأنسة نيفيل؟
 - ٩ — ما سببُ العداوة بين العائلتين؟
 - ١٠ — كيف قتل العقيدُ ديللاريبيا؟
 - ١١ — ما سرُّ محفظةِ العقيد ديللاريبيا؟
 - ١٢ — ما الذي ينمُّ عن عاطفة أورسو نحو الأنسة نيفيل؟
 - ١٣ — ما الذي أهدته كولومبا للأنسة نيفيل؟
 - ١٤ — ما الذي أراد صديقُ العائلة أن ينصح به أورسو؟
 - ١٥ — لم استاء أورسو من اللقاء الذي أُعدَّ له؟
 - ١٦ — ما هي توقعات جيران العائلتين؟
 - ١٧ — كيف قضى أورسوليلته الأولى في داره؟
 - ١٨ — اين اقتادتْ كولومبا أخاها؟ ولماذا؟
 - ١٩ — ما هي نصيحة الفارين من وجه العدالة لأورسو؟
 - ٢٠ — ما موضوعُ المِرثاة التي أنشدتها كولومبا في دار بياتري؟
 - ٢١ — ما سببُ زيارة المحافظ لدار أورسو؟

- ۲۲ - لم ادعت كولومبا أن أخاها لا يستطيع النهاب إلى المحافظ؟
 ۲۳ - ما رأيك بموقف المحافظ؟
 ۲۴ - لم جرح كولومبا أذن جواد أورسو؟
 ۲۵ - ما رأيك بنهاية القصة؟

صفا و تنفید: دارقدموس

کولومبیا

قصہ
عالمیہ

